

# معالم تستوقف المتأمل في سيرة ومؤلفات المؤرخ

( غيثان بن علي بن جريس ) (\*)

أ. د. أحمد محمد إيشرخان

(\*) دراسة منشورة في كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب، لغيثان بن جريس (الطبعة الأولى) ( الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٤٢ هـ / ٢٠٢٠ م ). (الجزء الثامن عشر)، ص ص ٣٨٣ - ٣٩٥ .

### ثالثاً: معالم تستوقف المتأمل في سيرة ومؤلفات المؤرخ ( غيثان بن علي ابن جريس ) بقلم . الدكتور أحمد محمد إيشرخان<sup>(١)</sup>.

م	الموضوع	الصفحة
١-	تمهيد	٣٨٤
٢-	سيرته في مؤلفاته	٣٨٤
٣-	معالم تستوقف المتأمل في سيرة مؤرخ	٣٨٥
٤-	من البيوغرافيا إلى المنوغرافيا	٣٨٦
٥-	وقفات في كتاب ( الرحلات )	٣٨٧
٦-	تواضع العلماء وفتح الباب أمام الباحثين	٣٨٨
٧-	اعتماد المنهج النقدي	٣٨٩
٨-	الثناء على الرحالة ابن بطوطة المغربي	٣٨٩
٩-	رحالة مكي يذم القنطرة	٣٩١
١٠-	التنقيب عن المعلومات في المخطوطات	٣٩٢
١١-	الدعوة إلى الاطلاع على المصادر الأجنبية وترجمتها إلى اللغة العربية	٣٩٤

(١) الدكتور أحمد إيشرخان ، مغربي الجنسية ، وهو أستاذ التاريخ الحديث المشارك في جامعتي سيدي محمد بن عبد الله بالمغرب ، وجامعة الملك خالد في المملكة العربية السعودية . حصل على درجة الدكتوراه من جامعة محمد الخامس بالرباط ( المغرب ) ( ٢٠٠٣م ) ، والتحق بالوظيفة في العام نفسه في جامعة محمد بن عبد الله بفاس . شغل العديد من الأعمال الإدارية في جامعته بالمغرب ، وهو عضو في العديد من المجالس واللجان العلمية والإدارية والاجتماعية ، حصل على عدد من الجوائز والشهادات في المغرب . ودرس وما زال يدرس الكثير من المقررات لمراحل البكالوريوس والماجستير والدكتوراه في جامعته بالمغرب ، وفي جامعة الملك خالد في أبها ( المملكة العربية السعودية ) . شارك في الكثير من اللقاءات ، والندوات ، والمؤتمرات في المغرب والسعودية ، كما أشرف وما زال يشرف ويناقش الكثير من رسائل الماجستير والدكتوراه . وللدكتور أحمد أكثر من ستين عملاً أكاديمياً ومعظمها منشورة في هيئة كتب أو مجلات علمية ، أو أعمال ندوات ومؤتمرات مختلفة . ومن هذه الأعمال العلمية ما يلي : (١) دراسة وتحقيق لمخطوط ( الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن " الأجزاء ( ٦ ، ٧ ، ٨ ) عصر السلطان مولاي إسماعيل لمؤرخ الدولة العلوية أحمد بن الحاج السلمي . ( أربعة أجزاء ) . (٢) العلامة المغربي القاضي محمد بن إدريس العلوي-قضايا في الفكر المعاصر ( ١٣٠٥ - ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١-١٨٨٧ م ) (جزءان) . (٣) النخب في تاريخ المغرب . أعمال ندوة ( مطبعة النجاح الجديدة في الدار البيضاء ، ٢٠١٦م ) ( جزءان ) . (٤) " مصادر ووثائق الدولة العلوية من خلال دورات جامعة مولاي علي الشريف الخريفية " . منشور ضمن كتاب : أضواء على تاريخ تافيلالت ( الرباط : منشورات وزارة الثقافة ، ٢٠٠٣م ) . وأعمال أخرى كثيرة . والدكتور أحمد إيشرخان على قدر كبير من الأدب وحسن الخلق ولطف المعشر ، كما أنه أستاذ قدير ومتمكن في مجال تخصصه . (ابن جريس) .

**١- تمهيد:**

يدرك المؤرخون والباحثون والطلبة الجامعيون الجهود الكبيرة التي بذلها ومازال الأستاذ الدكتور غيثان بن علي بن عبد الله بن جريس الجبيري الشهري في مجال البحث التاريخي، ومؤلفاته تغني عن التعريف به، فضلا عما ألف حوله وحول أعماله ومنجزاته وما نشرته الصحف والمجلات حول نشاطه العلمي المتواصل. فهو يذكرنا بعلماء مشاركين انتشرت شهرتهم في الكتابة والتدوين، واشتهروا بالموسوعية وألّفوا في شتى فنون الأدب، وسلكوا دروب المعارف وعدت كتبهم من أمهات الكتب التي لا غنى عنها للباحثين المعاصرين، رغم كون المعاصرة حجابا، ولا أريد أن أذكر نماذج في باب الأشباه والنظائر، لأن المعاصرة تمنع المناصرة، لكن استوقفتني في كتاباته حرصه على تدوين كل المعلومات ممن عاصرهم والتقاها من العلماء وشيوخ القبائل، فهو يشبه في ذلك مؤرخين اشتهروا بتدوين تاريخ مدن وبادي، وعشائر وقبائل، والتقوا بشيوخ فحدثوهم عن أصول القبيلة وفروعها وانتجاعها واستقرارها وحروبها وعاداتها وتقاليدها، لذلك يبدو استهلال هذا المقال بنبذة في التعريف به من باب تعريف المعرف، والإشارة إلى علم، هو أشهر من نار على علم، لكن تميزه بالنسبة لي هو رحلاته العلمية وتسجيل مشاهداته اليومية، لأن أهم ما يكتبه المؤرخ هو ما يكتبه عن عصره.

**٢- سيرته في مؤلفاته:**

وهنا استحضر سيرة المؤرخ المغربي الكبير العلامة محمد المختار السوسي وهو مؤلف مكثر، الذي دون في التاريخ والتراجم والسير وأدب الرحلة ولم يترك عالما ولا متصوفا ولا زاهدا ولا فقيها إلا ترجم له، وعندما سأله أحد الباحثين لماذا كتبت تراجم كل هؤلاء ولم تترجم لنفسك، أجاب وهو يشير بسبابته إلى كتبه: "هذه هي ترجمة نفسي وقصة حياتي"، فسيرته هي مؤلفاته، هذا الأمر ينطبق إلى حد كبير على الأستاذ الدكتور غيثان بن جريس، فإذا تتبعنا مؤلفاته بالقراءة، وما فوق القراءة، تمكنا من استنباط سيرته التي يمكن اختصارها في رجل قسم وقته إلى قسمين: قسم يجوب فيه الآفاق بحثا عن المصادر والوثائق ويدون فيه ما جمعه من الروايات الشفهية، وقسم فيه يعتزل بزاوية من بيته يختلي في مكتبه لتدوين حصيلته.

وإذا كان جل المؤرخين يكتفون بالبحث في المصادر والوثائق باعتبار أن من شروط التاريخ البعد الزمني، فإن الأستاذ الدكتور غيثان تجاوز هذا الشرط بتسجيل مشاهداته وأحداث عصره وهو بذلك ينتقل من التاريخ الوسيط إلى التاريخ المعاصر بل يتجاوزه إلى التاريخ الراهن الذي أصبح موضوع نقاش بين المؤرخين.

### ٣. معالم تستوقف المتأمل في سيرة مؤرخ :

ويصعب علينا تتبع كل ما كتبه هذا المؤرخ الجماعة والمؤلف المكثّر الذي ألف ما يربوعن أربعين كتابا، لكن سيرته فيها معالم تستوقف القارئ لترجمته وهي العطاء والموهبة والقدرة على الجمع بين التدريس الجامعي والإشراف والإدارة والكتابة والتأليف، علما أن العديد ممن عاصرناهم من شيوخنا في المغرب، من أمثال: العلامة الأستاذ الدكتور محمد بن شريفة، والأستاذ الدكتور إبراهيم حركات وغيرهم كثير ممن ذاع صيتهم واشتهر في مجال الكتابة والتدوين، أجمعوا على أن العمل الإداري في الجامعة يعرقل الباحث ويحول دون تفرغه العلمي، لكن الأستاذ الدكتور غيثان بن جريس في نظري يعد استثناء في هذا المجال حيث جمع بين تولي مناصب إدارية والتأليف في مجموعة من الحقول المعرفية.

فقد قارب في مؤلفات التاريخ المنوغرافية وذلك بالكتابة حول مجموعة من المناطق الحضريّة والقروية مثل: نجران، وجازان، وأبها، وعسير، والباحة، والقنفذة، والطائف، كما ألف في مجال تخصصه "التاريخ الإسلامي"، واهتم بالحضارة والعمران والسياسة والاجتماع والتراجم والسير والمناقب، وله وقفات في الكتابة عن التربية والتعليم، وفي تاريخ الأقليات وفي ما أصبح يطلق عليه اليوم في مدارس تاريخية راهنة (التاريخ المهمش) أو (التاريخ من الأسفل).

وفي خضم كل ذلك لم ينس "التأريخ لقسم التاريخ" وهي بادرة عز نظيرها في أقسام التاريخ التي تتجاهل بحكم العادة تاريخ المنتسبين لقسم التاريخ، وهو ما تجاوزه الأستاذ الدكتور غيثان في الدراسة التي نشرها عن مساره هذا القسم ما بين (١٣٩٦.١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

إن من أهم ما نشره الأستاذ الدكتور غيثان هو اهتمامه بالبيوغرافيا باعتبارها حياة فرد مؤثر في مجتمعه، فهي تقدم لنا صورة عن المرحلة التاريخية التي عاصرها المترجم له، فنذكر من خلال ترجمته تفاصيل دقيقة من تاريخ ظل في الظل، في شتى الجوانب، ومنها: تاريخ العلوم وشيوخ العلم والرحلة في طلب العلم، وقد قدم لنا بكل موضوعية نموذجا لكتابة البيوغرافيا الحديثة في كتابه حول سيرة عبد الوهاب أبو ملحّة في جنوب البلاد السعودية، ومن نافذة القول إن هذه المبادرة في التأريخ للأفراد والعناية بكتابة تفاصيل حول حياتهم وتتبع سيرتهم وأثرهم في عصرهم صارت نموذجا يقتدي به طلاب الدراسات العليا في جامعة الملك خالد حيث سجلت العديد من رسائل الماجستير على هذا النسق.

وهذا النوع من الكتابة أعني البيوغرافيا التي هي نوع من "إعادة صياغة السير" يعتبر اليوم من أهم مجالات الكتابة التاريخية، حيث تلقى إقبالا من طرف الباحثين في مجال الدراسات التاريخية، وقد سبق للمؤرخ الفرنسي جاك لوكوف أن كتب مقالا شهيرا تحت عنوان: **كيف تكتب البيوغرافيا التاريخية اليوم؟** وتعتبر المدرسة التاريخية الفرنسية رائدة في هذا المجال، فقد أنجزت العديد من كتب السير خلال الأربعين سنة الماضية، وأصبحت هي المسيطرة على دور النشر حتى أطلق عليها بعض الباحثين "حمى البيوغرافيا"، وانتقلت المنشورات في هذا المجال منذ منتصف الثمانينيات من مائتي كتاب إلى أزيد من ألف كتاب، فاحتلت المكانة الأولى في المنشورات والمبيعات، وبذلك تجاوزنا نظرة "مدرسة الحوليات" التي كانت ترفض وتعارض هذا النوع من الكتابة التاريخية حتى بدا للمهتمين أن هذا النوع من الكتابة انتهى بغير رجعة، ويبدو لي أن المؤرخ غيثان بن جريس لم يتأثر بما نشر من هذه الدراسات التي لم تكن ترى في هذا النوع من الكتابة فوائد تاريخية، لأنه واصل البحث والإشراف على رسائل جامعية في هذا الحقل المعرفي.

#### ٤- من البيوغرافيا إلى المنوغرافيا :

لم تكن البيوغرافيا عند غيثان مجرد تقليد بل هي منبع الإبداع والتجديد والخروج من المجال الذي شكل أبرز اهتماماته وهو المجال "المنوغرافي" الذي يشكل اليوم حجر الزاوية في كل أعماله من خلال موسوعته الضخمة الموسومة بـ: **القول المكتوب في تاريخ الجنوب**، والمنوغرافيا كما هو معلوم هي الدراسة المفردة المفصلة لموضوع محدد بعينه وبحث كل جوانبه التفصيلية من خلال تحديد الزمان والمكان، لأن مصطلح منوغرافيا كما هو معلوم لدى الباحثين، مكون من كلمتين الأولى "منو" التي تعني دراسة المجال الواحد الذي يشكل وحدة متكاملة، أما كلمة "غرافي" فهي الوصف الشكلي للواقع والقصد منها هو تسجيل المعلومات والتحقق من صحتها ثم تصنيفها وترتيبها وتفصيلها وتبويبها، وكل هذا المعطيات نجدها في مؤلفات ابن جريس، بل أكثر من ذلك تجاوز غيثان كل هذه التخصصات والتعريفات واشتغل بمنهج الأنثروبولوجيا من خلال حقل الإثنوغرافيا وذلك باعتماده على الملاحظة المباشرة للوحدة الاجتماعية ووصف حالتها الراهنة وسلوكها وممارستها الثقافية وكل ما يتعلق بنشاطها وعلاقتها بمحيطها الطبيعي، وهو ما نلاحظه في الجزء الأول من كتابه الأخير الصادر برسم سنة (١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م)، المعنون بـ **منطقة الباحة، دراسات، وإضافات، وتعليقات (ق-١- ق-١٠ هـ / ق-٧- ق-٢١م)** (الجزء الأول).

**٥. وقفات في كتاب (الرحلات):**

من آخر ما اطلعت عليه من كتب المؤرخ غيثان بن جريس كتاب: **"الرحلات والرحالة في الجنوب السعودي (ق٢- ١٥هـ / ق٨-٢١م)"**، هذا الكتاب الذي جمعه الباحث المقدر الأستاذ محمد بن أحمد معبر في مجلدين من الحجم الكبير، وهو من آخر ما أصدرته المطابع من أبحاث الدكتور غيثان عام (١٤٤٠هـ / ٢٠١٨م)<sup>(١)</sup>، والكتاب كما يدل عليه عنوانه هو في مجال علمي وثيق الصلة بحقل التاريخ، فمن المعلوم أن الرحلات تعتبر اليوم من أهم روافد الدراسات التاريخية، فقد انتبه جيل من الباحثين المعاصرين إلى الأهمية المصدرية والتوثيقة لهذا النوع من الكتابة، لذلك أصبح أدب الرحلة ضروريا لكل باحث في التاريخ، بل يكاد مجال الرحلات أن يشكل اليوم حقلًا معرفيًا متكاملًا ومستقلًا في العلوم الإنسانية، وأصبحت أقسام الآداب والتاريخ والدراسات الإسلامية تضم متخصصين في أدب الرحلات وفي سير الرحالين، لما تشتمل عليه من معلومات تكاد تنعدم في المصادر التاريخية المباشرة، لأن الرحالة يدون تفاصيل دقيقة حول مسار رحلته وكل ما يرتبط بها من مشاهدات ولقاءات وأحداث فضلا عن وصف طبيعة الأماكن التي مر منها، مع ذكر أحوال أهلها وما يتمتعون به من مصادر وموارد اقتصادية، ولا تخلو جل الرحلات مما اصطلح عليه لدى الباحثين "بالعجائبي والغرائبى"، ولقد تنبه الغربيون إلى أهمية توظيف أدب الرحالة في مجال البحث الأكاديمي، هذه النظرة نجدها عند غيثان في كتابه هذا، لكن تميزه عن بقية الباحثين تجلى في جمعه بين مجالات مختلفة يمكن تصنيفها كما يلي: (أولا) جمع المعلومات من رحلات سابقة. (ثانيا) دراسة ونقد معلومات الرحلات التي تهم موضوعه. (ثالثا) ممارسته الشخصية للرحلة. (رابعا) تدوين مشاهداته ولقاءاته في رحلاته. (خامسا) جمع ما أمكنه من روايات شفوية. (سادسا) التزامه بالموضوعية حيث يذكر الإيجابيات والسلبيات. (سابعا) حضور حس المؤرخ والحرص على ذكر التواريخ. (ثامنا) التزامه بالحياد، كما قرر هو بنفسه في استجاباته المنشورة في مجموعة من الجرائد والصحف والمجلات.

لقد استهل الدكتور غيثان كلامه في هذا الكتاب الذي يمكن اعتباره موسوعة في مجال الرحالة والرحالون في الجنوب السعودي، بالحديث عن بلاد القنفذة في عيون الرحالة المسلمين وغير المسلمين، معتمدا على سبعة عشر مصدرا في علم الرحلة،

(١) صدر بعد هذا الكتاب حوالي سبعة مؤلفات أخرى من (١٤٤١، ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩، ٢٠٢٠م)، للمزيد انظر: سيرة الدكتور غيثان بن جريس .

استهله بالتعريف بالمؤلفين لهذه المدونات الذين امتد مجالهم التاريخي من القرن (ق ٥هـ / ١١م)، إلى القرن (١٤هـ / ٢٠م)، ومعنى ذلك أنه غطى مرحلة تاريخية عبر العشرة قرون، وقد تنوعت مواطن انطلاق رحلاتهم وطرق سيرهم ومحطات نزولهم، ومعاصرتهم للأحداث، كما تنوعت جنسياتهم، فتجد ضمنهم ناصر خسرو الأفغاني، وابن بطوطة المغربي، والسلطان الرسولي اليمني، والعباس بن علي الموسوي المكي، ويحيى بن المطهر اليمني، ومحسن بن عبد الكريم اليمني، وإسماعيل يعقوب اليمني، والسير كيناهاان كورنواليس الإنجليزي وروبن بدول الإنجليزي، وهاري سانت جون فليبي الإنجليزي، وتوتشيل الأمريكي، وغيرهم كثير.

وإن أجمل ما في هذه التعاريف واللمحات المضيئة هو كون ابن جريس يفتح أبوابا عديدة على مشاريع بحثية، مثل: العادات والتقاليد والغذاء وأساليب العيش، وأنواع المزروعات، التي يبدو لنا اليوم أن بعضها قد اندثر أو تغيرت ملامحها، والمجال البيئي المرتبط بالماء والنباتات والغابات، وكل هذه الميادين يمكن البحث فيها من خلال الإشارات والإفادات التي أفاد بها المؤلف، وهي غنية بالمعلومات النفيسة. ولا يكتفي المؤلف بذكر تراجم مؤلفي الرحلات، وذكر بعض مضامينها المتعلقة بالقنفذة بل يوجه النقد إليها ويذكر التفاوت في معلوماتها.

## ٦- تواضع العلماء وفتح الباب أمام الباحثين :

إن أهم ما يتميز به غيثان بن جريس هو فتح الباب للباحثين الشباب باقتراح موضوعات معينة في مجال الرحلة، يقول ضمن السبب الثالث من الأسباب الأربعة التي قدم بها دراسته لبلاد القنفذة (ج ١ ص ٤١): "السبب الثالث: الإشارة إلى كثير من الأمور والقضايا والتواريخ السياسية والحضارية التي دونها هؤلاء الرحالة، وهذا مما يفتح أبوابا للباحثين وطلاب وطالبات برامج الدراسات العليا في جامعتنا فيتخذوا من هذه الموضوعات أو الأحداث عناوين لرسائلهم وأطروحاتهم الجامعية".

وفي قمة تواضع العالم المحقق يقول: "وعندما يتوسعون في دراسة ما أشرنا إليه، ويصحون ما وقع فيه الرحالة، أو وقعنا فيه من تصور أو أخطاء علمية أو منهجية، ومن ثم يتم إثراء الساحة العلمية والثقافية في بلادنا". وضمن تواضع العلماء يقول أيضا: "لا ندعي أننا أخطنا بمدونات كل العلماء والرحالين الذين زاروا القنفذة" (ج ١، ص ٤١). وفي باب تحفيز الأجيال المقبلة على البحث يقول: "حبذا أن يأتي من أبنائنا وطلابنا من يبحث عن هذا الموضوع بطريقة علمية أكاديمية مستوفاة" (ج ١، ص ٤٦).

## ٧. اعتماد المنهج النقدي:

لم يكن منهج غيثان بن جريس مبنياً على سرد الأحداث وتتبع مسار الرحالة الذين زاروا المنطقة اعتماداً على تنظيم كرونولوجي، بل اعتمد منهج النقد التاريخي، والتاريخ المقارن، والتمحيص بطبائع العمران الذي هو سابق عن أقوال الرجل كما هو معتمد في المنهج الخلدوني، فإذا حضرت شواهد مادية تفند ما ذكره رحالة من الرحالين العرب أو الأجانب انحاز إلى الشواهد العمرانية، ونبه إلى الخلط الذي وقع فيه صاحب المصدر إما بسبب تضارب الروايات أو بسبب نقل الأخبار من مصادر أو مرويات سمعها من وفود الحجيج، ولا أريد أن أسرد كل ما جاء في هذا الباب واكتفي بذكر ما قاله عن الرحالة معين الدين ناصر خسرو المروزي وهو من رجال القرن (١١هـ/ ١١م) يقول غيثان: " فمن الثابت أن خسرو لم يزر هذه الديار، وإنما جمع معلوماته عنها من بعض الحجازيين والنجديين، الذين لم يكونوا هم دقيقين في روايات معلوماتهم، ومن ثم فقد وقع في أخطاء عديدة، لأنه خلط في وصفه لهذه البلاد بين السهول الساحلية والمناطق المرتفعة من بلاد السراة وما يأتي من شرقها" (ج ١، ص ٤٢)، ويعقب أيضاً على ما ذكره هذا الرحالة في امتداد بلاد حمير من مكة إلى عدن: " وقوله بلاد حمير من مكة إلى عدن فهذا غير صحيح، لأن المتأمل في أنساب سكان هذه البلاد يجدها من القبائل العدنانية والقحطانية، وليس جميعها حميرية يمانية كما ذكر خسرو" (ج ١ ص ٤٢).

إن هذا القول يدل دلالة واضحة على أن غيثان بن جريس عارف بجغرافية المكان ملم بحدود مجالات استيطان القبائل، وهو ما تؤكد وقفات التاريخ والجغرافية عند ذكر كل قبيلة من القبائل التي ذكرها في كتابه. بل يتتبع ويشرح التركيبات السكانية من بطون وعشائر للمناطق المعنية بالدراسة والتحليل.

## ٨. الثناء على الرحالة ابن بطوطة المغربي:

لا أدري لماذا شدني كلام الدكتور غيثان عن الرحالة المغربي الشهير محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المغربي الشهير بابن بطوطة وهو من رجال القرن (٨هـ/ ١٤م)، هل ذلك بفعل الانتماء الوطني؟ أم بدقة المعلومات وصدقها؟ ومهما يكون الأمر فقد ذكر ابن جريس أن هذا الرحالة زار منطقة القنفذة ودون: " معلومات قيمة نادرة لا نجدها في أي مصدر آخر، شرح فيها بعض ما شاهده في بلاد حلي" (ج ١، ص ٤٤). ويسترسل المؤلف في سرد مجموعة من النصوص الموثقة لهذه الزيارة التي سجلت بكل عناية ما شاهده هذا الرحالة المغربي، في تسلسل بأسلوب مشوق يدعو القارئ إلى



الرجوع إلى نص الرحلة الموسومة بـ "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" لمعرفة مزيد من التفاصيل.

فابن بطوطة حسب وصف غيثان بن جريس هو "الرحالة البارع" (ج ١ ص ٤٥). الذي لا يكتفي بالسرد للأحداث بل يروي أدق تفاصيلها، ويعطينا صور اجتماعية واقتصادية وفكرية ودينية: كانت سائدة في بلاد حلي بن يعقوب، ويقول المؤلف: "بل أشار - ابن بطوطة - إلى أمير تلك المنطقة ابن ذؤيب الذي ذكر أنه كان على مستوى جيد من الأخلاق، بل كان من العارفين بعلوم الشرع والأدب" (ج ١، ص ٤٥).

إن ما يثير الانتباه فيما ذكره ابن جريس عن ابن بطوطة وثناؤه على دقة معلوماته، وهو الباحث العارف الملم بمجال المنطقة وتاريخها، هو العودة إلى ذلك السؤال الذي ظل مطروحا في المدرسة التاريخية المغربية حول تدوين ابن بطوطة لمشاهداته اليومية يوما بيوم، وهو ما يناهز ما هو معروف ومتداول حول اعتماده على ذاكرته فقط عند إملائه لتفاصيل رحلته، التي دامت أزيد من ربع قرن، على الفقيه الأديب الكاتب أبو عبد الله محمد ابن جزى الكلبي بأمر من السلطان المغربي الشهير أبو عنان المريني حيث قال ابن جزى في مقدمة رحلة "تحفة النظار": "ونفذت الإشارة الكريمة بأن يملئ ما شاهده في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار، وعلمائها الأخيار، وأوليائها الأبرار، فأملئ من ذلك ما فيه نزهة الخواطر، وبهجة السامع والناظر، من كل غريبة أفاد بامتلائها، وعجبية أطراف بانتخابها" (من مقدمة ابن جزى لتحفة النظار، (ج ١، ص ١٥-١٦). فكتب الرحلة يؤكد في هذا النص على اعتماد الراوي ابن بطوطة على الذاكرة من خلال قوله: "وما علق بحفظه" وهو ما يدفعنا إلى ضرورة إعادة النظر في كل ما قيل حول اعتماد الذاكرة في مرويات السارد.

هذا من جهة ومن جهة أخرى نلاحظ أن ابن بطوطة اهتم في رحلته غاية الاهتمام بذكر رجال الصلاح والزهاد، والمتصوفة والعباد، وهو ما أكده المؤرخ غيثان بن جريس نقلا عن ابن بطوطة عند حديثه عن مدينة حلي التي كانت على مستوى عال من الرقي والتحضر، حيث ورد في تحفة النظار: "وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع، وفيه جماعة من الفقهاء المنقطعين للعبادة، منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندي، من كبار الصالحين لباسه مرقعة وقلنسوة لبد، وله خلوة متصلة بالمسجد، فرشها الرمل لا حصير بها ولا بساط، ولم أر بها حين لقائي له شيئا، إلا إبريق الوضوء،

وسفرة من خواص النخيل فيها كسرة شعير يابسة، وصحيفة فيها ملح وسعتر، فإذا جاء أحد قدم بين يديه ذلك" (ج ١، ص ٤٥). ثم يستطرد في ذكر تفاصيل اجتماع أصحاب هذا العابد، وزهدهم وأذكارهم، هذا الحال بما فيه من صعوبة عيش وتحمل زهد، أعجب رحالتنا المغربي وتمنى لو بقي في إطاره بقية حياته، فقال: "ولقد أردت الإقامة معهم باقي عمري، ولم أوفق في ذلك، والله يتداركنا بلطفه وتوفيقه" (ج ١، ص ٤٥).

لم يكتف ابن بطوطة بوصف العمران وذكر أخبار الزهاد في مدينة حلي بل أشار إلى مشاركته في ركب حجة أميرها عامر بن ذؤيب، وهو من بني كنانة، ولا أدري لماذا وصفه ابن بطوطة بلقب "السلطان" إلا أن يكون مطلق الاسم على العادة المغربية حيث دأب المغاربة على تسمية ملوكهم بالسلطين، وإلا فهو "أمير بلاد حلي" كما ذكر ابن جريس. وقد أقام في ضيافته ابن بطوطة أياما وقال في حقه: "إنه من الأدباء والفضلاء والشعراء" (ج ١، ص ٤٥).

هذا وصف رحالة مغربي أعجب بالمناطق التي زارها في الجنوب السعودي، وقدم لنا معلومات غنية حول بلاد القنفذة، وأثنى غيثان بن جريس على أمانته، ولا شك أن رحلة ابن بطوطة ما زالت تزخر بمزيد من المعلومات، مع باقي الرحلات المغربية، حول تاريخ بلاد الحجاز، فقد اشتهر المغاربة بدقتهم في هذا المجال لما لهم من روابط عاطفية وروحية بالبقاع المقدسة.

بقي أن نذكر في ختام هذا المحور أن غيثان بن جريس اعتمد في استخراج معلوماته من "تحفة النظار" على النسخة التي حققها الدكتور علي المنتصر الكتاني، وهي وإن كانت ذات قيمة علمية، فهي لا ترقى إلى النسخة التي قام بتحقيقها العلامة الدكتور عبد الهادي التازي، لأنها أوثق وأشمل وبها معلومات إضافية لا توجد في النسخ المنشورة قبلها، وقد صدرت في خمسة مجلدات مع مستدرك. وآمل إن جددت الكتابة في هذا الموضوع الاعتماد على هذه النسخة.

## ٩-رحالة مكّي يذم القنفذة؛

إذا كان ابن بطوطة المغربي قد أعجب ببلاد حلي بن يعقوب التي هي جزء من منطقة القنفذة اليوم، وأثنى على أميرها وأعجب بأهلها، في منتصف القرن (٨/١٤م)، فإن الرحالة المكّي العباس بن علي الموسوي وهو من رجال القرن (١٢/١٨م)، زار هذه الناحية عام (١١٤١هـ/١٧٢٨م)، وبالغ في ذم القنفذة فقال: "ثم خرجنا من دوقة في ساعة مسعدة، ودخلنا القنفذة، فرأيتها قرية الفقر بها قاطن" (ج ١، ص ٤٨).

بل جاء في مطلع قصيدته الرجزية:

تبا لها من قنفذة	لما أتيت القنفذة
من كل خير مبعدة	رأيتها بليدة
بحالة منكدة	ثلاث أيام مضت
والجوع نار موقدة	مكثت فيها طاويا
ذا هممة مسددة	ولم أجد فيها فتى

فمن المفارقات العجيبة أن الرحالة ابن بطوطة عمد إلى ذكر كل الصفات الحسنة في بلاد حلي وما جاورها من أرض القنفذة، ولم يترك العباس الموسوي وصفا قادحا إلا وصفها به، فهل يرجع ذلك إلى الفارق الزمني ما بين القرن (٨هـ/١٤م) والقرن (١٢هـ/١٨م)، حيث تغير الوضع مع تغير السياق التاريخي؟ أم لأحداث عابرة صادفت الرحالة؟ أم إلى حاجة في نفس صاحب الرحلة؟ هذه أسئلة يمكن الإجابة عنها في فصول منفصلة، لكن الدكتور ابن جريس انتقد هذا الرحالة المكي ووصفه ب: "رحالة ينتقل في الأقطار بحثا عن العطايا والهبات، ومن لا يحسن استقباله يصمه بأقذع الأوصاف" (ج ١، ص ٤٨). مما يستلزم انتباه الباحثين إلى ضرورة تحري الموضوعية أثناء اقتباس النصوص والاستشهاد بها في سياقها التاريخي.

### ١٠. التنقيب عن المعلومات في المخطوطات؛

لم يكتف غيثان بن جريس في التنقيب عن المعلومات المتعلقة بموضوعه باعتماد المصادر المطبوعة، بل عمد إلى المخطوطات يستقي منها ما يعزز موضوعه، ومنها على سبيل المثال لا الحصر رحلة يحيى بن المطهر بن إسماعيل وهو من رجال القرنين (١٢-١٣هـ/١٨-١٩م). حيث دون معلوماته في رحلته الموسومة بـ "بلغة المرام في الرحلة إلى بيت الله الحرام" وهي كما جاء في الهامش (٣، ص ٤٩) من الجزء الأول، ما تزال مخطوطة، ويبدو لي أن هذه الرحلة تم تحقيقها ونشرها فيما بعد نشر المقال في أصوله الأولى قبل جمعه في كتاب "الرحلات والرحالة"، حيث حققها وقدم لها كل من عبد الله الحبشي وحسني محمد ذياب، ونشرتها دار السويدية في أبوظبي في مجلد عام (٢٠٠٦). ونشير إلى ملاحظة أخرى حيث سجل ابن جريس أن تاريخ بداية الرحلة كانت في شوال (١٢١١هـ الموافق ١٧٩٦م)، والصحيح أنها توافق شهر أبريل من سنة (١٧٩٧م).

ويؤكد الدكتور غيثان أن هذه الرحلة ليست ذات فائدة كبيرة في وصف القنفذة، باستثناء ما سجله صاحبها من مظاهر الابتزاز للمسافرين من قبل فئة الجمالة بالموانئ في الأجزاء التهامية، مع الاعتداء الذي يمارسه بعض قطاع الطرق واللصوص على الطريق الساحلي البري الرابط بين القنفذة ومكة المكرمة، ولعل هذه الأوضاع الأمنية هي التي كانت تدفع ركب الحجيج إلى ركوب البحر في مغامرة مع أواجه. وهو ما فعله الرحالة ابن المطهر. (ج ١، ص ٤٥).

هذه الأخبار وإن كانت قليلة فإنها في نظري تعطينا صورة عن الوضع السياسي والأمني مع تسجيل بعض المظاهر الاجتماعية في المنطقة. وهو ما يمكن تعزيزه من خلال رحلات أخرى في دراسة مستقلة، من مثل: رحلة الأديب الشاعر محسن بن عبد الكريم إسحاق الذي دون معلومات غزيرة عن القنفذة في منظومة رجزية اعتبرها غيثان ابن جريس ذات فائدة وهامة جدا في مختلف الجوانب الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية. (ج ١، ص ٥٣).

ومن المفارقات الجميلة أن العلامة إسماعيل بن حسين بن هادي جفمان وهو من جهابذة علماء القرن (١٣هـ/١٩م)، سجل انطباعات جيدة عن الجمالة في القنفذة في الوقت الذي اشتكى فيه رحالة سابقون من الجمالة على العموم، ووصفوههم بأقذع الأوصاف لممارستهم الابتزاز ورفع الأسعار، ولعل ذلك مرتبط بالأقبال على السفر برا بدل ركوب أمواج البحر، وهو ما يمكن استنتاجه من قول العلامة إسماعيل جفمان: "وصلنا في البحر إزاء بندر القنفذة، وكان قد ضاق بنا الحال، ولم تكن تصبر النفس على البقاء في البحر بحال" (ج ١، ص ٥٣). موقف هذا العالم العربي المسلم من ركوب البحر الرابط بين القنفذة وميناء مكة يذكرنا بمجموعة من مواقف سجلها رحالون خاضوا أهوال البحر، وظل الخوف من ركوبه متداولاً في الأدب العربي، وكفيينا هنا أن نذكر الأبيات الشهيرة للشاعر مصعب بن محمد بن الزبير الملقب بأبي العرب:

لا تعجبين لرأسي كيف شاب أسى      واعجب لأسود عين كيف لم يشب  
البحر للروم لا تجري السفين به      إلا على غرر والبر للعرب

إن مجال البحث في تاريخ البحر يظل منفتحاً على الباحثين، وضمنها صورة البحر في الرحلات المكية، وهذا ما يميز كتب غيثان بن جريس، وهو فتح الأفاق لمواضيع جديدة، وضمنها البحث في مسألة النقود والعملات والأوزان، حيث نقف في رحلة جفمان على إفادات هامة حول أنواع العملات وأوزانها ومنها: "الريال" و "القرش" و "الزلطة"

و"الدرهم" و"البرغوثة" و"الديواني" وقد أعجبنى هذا النص التفصيلي في أسعار العملات، يقول العلامة إسماعيل جفمان: "والقرش عندهم عبارة عن الزلطة، وهي درهم منقوش عليه اسم الضارب ومكانه، وبالقرش الحجر منها في القنفذة ستة عشر، وفي جدة خمسة عشر، وفي مكة أربعة عشر، وفي المدينة ثلاثة عشر، ويزاد وينقص في بعض الأحيان، وثمة ضربة ذهب تسمى برغوثة عبارة عن ثلاثة قروش إلا ربع زلط، وضربة أم عشرين وهي عبارة عن نصف الزلطة، وأم عشرة عن ربعها، وأم خمسة عن ثمنها، والديواني فضة خالصة وهو شيء يسير عبارة عن ربع عشر الزلطة، والأرباع الفرانص، كثيرة يتعامل بها، والزلط أنفق منها وثمة ضربة زلط كبار جيدة الفضة تباع الواحدة منها بثلاث زلط من النحاس، وتجد الصيارفة كثيرا في الأسواق تأخذ ما أردت منهم، وهذا عارض من القول" (ج ١، ص ٥٥، ٥٦). هذا النص زاخر بالمعلومات حول مسألة النقود في القرن التاسع عشر الميلادي رغم التعبير الذي ختم به العلامة إسماعيل بقوله: "وهذا عارض من القول" وزاد من غناه الهوامش والتعليق التي أثبتتها ابن جريس، بالشرح والتفصيل مما يفيد الباحث المهتم بمجال التاريخ الاقتصادي، ومن الطريف أن نلاحظ رواج عملات أجنبية في بلاد تهامة والسرارة في هذه الفترة التاريخية كما ذكر المؤلف في الهامش الذي ساقه للتعريف بعملة الريال قال: "أما الريال فضة إسبانية أو نمساوية، وهو عبارة عن عملة فرانسة تم التداول بها في بلاد اليمن منذ بداية القرن العشرين" هذه الإشارات يمكن جمعها للبحث في موضوع تاريخ رواج العملات الأجنبية بالجزيرة العربية.

### ١. الدعوة إلى الاطلاع على المصادر الأجنبية وترجمتها إلى اللغة العربية؛

هذا الهاجس نجده يتردد في كتابات غيثان بن جريس ولا نستطيع أن نتحدث عن كل ما ذكره في هذا المجال، وكفيينا هنا الإشارة إلى التقرير الذي كتبه الإنجليزي السير كيناهان كورنواليس (Sir. K. Cornwallis) تحت عنوان "عسیر قبل الحرب العالمية الأولى" فبغض النظر عن أهمية المعلومات الواردة فيه والمتعلقة بتاريخ الجنوب السعودي، ينبهنا ابن جريس إلى تاريخ التقرير ومسار ترجمته "ترجمة شعبية" وترامي أحد المدعين عليه وإصدار هذه الترجمة باسمه، وهو ما دفع الدكتور غيثان إلى الدعوة لإعادة الترجمة بطريقة علمية أكاديمية يقول: "ونتطلع إلى أن يقوم أحد طلاب الدراسات العليا في جامعتنا السعودية، أو أحد الباحثين الجادين على ترجمته ودراسته دراسة علمية جادة، مع العلم أنه يوجد به تفصيلات قيمة، لكن يوجد به أيضا الكثير من المغالطات والأخطاء العلمية الفادحة" (ج ١، ص ٥٨). هذه نظرة

مؤرخ يجمع بين النقد واقتراح المواضيع على طلاب الدراسات العليا، وضمنها الترجمة التي يرى أنها ضرورية لتطوير المعرفة التاريخية، والملاحظات نفسها تنطبق على كتاب روبن بدول الذي يحمل عنوان: "الشخصيات العربية في مطلع القرن العشرين"، حيث نبه غيثان بن جريس إلى أن هذا الكتاب ما زال باللغة الإنجليزية، ما عدا الفصلين الثاني والعاشر حيث قام أحد الباحثين بترجمتهما دون نشرهما، ونظرا لما يتضمنه هذا الكتاب من معلومات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية فإن الضرورة ملحة للترجمة الكاملة لهذا الكتاب.

هذه مجرد نماذج من معالم استوقفتني في زخم ما يعرضه الأستاذ الدكتور غيثان بن جريس في مختلف المجالات العلمية، التي تمنحه وبكل صدق التميز في سعة الاطلاع، وتملك المنهج العلمي الرصين، والنظرة الثاقبة في اختيار المواضيع، والصبر على متاعب البحث في مجال التاريخ الذي يكثرفيه السؤال، وتحد من طموحاتنا فيه توفير المصادر، ويحتد فيه الجري وراء الوثائق، لكن ما يميزه أيضا هو فتح آفاق لبحوث أكاديمية مستقبلية أمام الباحثين وطلاب الدراسات العليا. وكل ذلك لا أرى فيه إلا توفيقا من الله لهذا الأستاذ الكبير المؤرخ المقتدر الذي هو وبكل صدق رمز من رموز المدرسة التاريخية العربية الإسلامية<sup>(١)</sup>.

(١) شكر الله لك يا دكتور أحمد بن محمد إيشرخان ، أستاذ التاريخ الحديث المشارك بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بالمغرب ، والملك خالد بالسعودية على هذا الإطراء الذي والله لا أستحقه ، لكنك ترى في مجبك ما ذكرت ، فأسأل الله ، عز وجل ، أن يغفر لي ولك ، ويجعلني خيرا مما تظن ، كما أسأله أن يسخرنا لخدمة العلم والبحث العلمي بطرق حيادية ونزيه ، كما أسأله أن يخلص أعمالنا وأقوالنا ويجعلها خالصة لوجهه الكريم ، وأن لا يحرمننا الأجر والثواب من رب العباد ( ابن جريس ) .